سلسلة رسائل الفضيلة ١٩

حبل الله الممدود

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

سلسلة رسائل الفضيلة

(١٩)

حبل الله الممدود

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الفضيلة
(1435هـ ـ 2014م)

رقم الإيداع: 2014 ـ 1192
ردمك: 978 ـ 9947 ـ 58 ـ 015 ـ 8

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر
هاتف وفاكس: 021519463
النقال: 0559069992

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com
موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الإفضال والإنعام، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له المَلِكُ العلَّام، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسوله خيرُ الأنام، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه الأئمَّة الأعلام.

أمَّا بعد؛ فإنَّ «**حبل الله الممدود**» هو القرآن الكريم، وقَد جَاءت تسميته بهٰذا الاسم في السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة عن رسولِ الله ﷺ، فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه»⁽¹⁾ من حديث زيد بن أرقَم رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَلَا وَإِنِّي**

---

(1) برقم (٢٤٠٨).

تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

وروى الإمام أحمد في «مسنده»(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**».

وروى ابنُ أبي شيبة في «مصنَّفه»(٢) من حديث أبي شُريح الخزاعي رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**» قَالُوا: نَعَمْ؛ قال: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**».

---

(١) برقم (١١١٠٤)، وقال الألباني: «إسناد حسن في الشَّواهد» «الصَّحيحة» (٤/ ٣٥٧).

(٢) برقم (٣٠٠٠٦)، وقال الألباني: «صحيح على شرط مسلم» «الصَّحيحة» (٢/ ٢٣٠ رقم ٧١٣).

وروى الدَّارمي(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ يُنَادُونَ يَا عَبْدَ الله: هَذَا الطَّرِيقُ؛ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله؛ فَإِنَّ حَبْلَ الله القُرْآنُ».

وهذا الحبل الممدود قد أنزله الله ـ تبارك وتعالى ـ هدايةً للبَشر، وصلاحًا للنَّاس، وذكرى للمُؤمنين، وشفاءً لما في الصُّدور، وضياءً ونورًا وبركةً لمن كانَ من أهلِه، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سُورَةُ صٓ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سُورَةُ الإسرَاءِ]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ المَائدَة].

---

(١) في «سُننه» برقم (٣٣٦٠).

أنزلَه الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى عباده ليكونَ منهجًا لهم في حياتِهم، وفي أخلاقِهم، وفي آدابِهم، وفي معاملاتِهم، وفي تعبُّدِهم وتقرُّبِهم إلى الله ﷻ، ولهـٰذا لَمَّا سُئِلت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلُق نبيِّنا ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»(١)، أي أنَّ كلَّما في القُرآن من عبادةٍ وخُلقٍ وأدبٍ ومعامَلَةٍ إلى غيرِ ذلك قد اتَّصف به نبيُّنا ﷺ على التَّمام والكَمال، فكانَ أعبَدَ النَّاس لله، وأكثَرَهُم خشيةً، وأعظَمَهُم تقوى، وأكمَلَهم خُلُقًا، وأحسنَهُم أدبًا، وأطيَبَهُم معاملةً.

قال ابن القيِّم رحمه الله كما في كتابه «التِّبيان في أقسام القرآن»(٢): «فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتَبَسة من مشكاة القُرآن، فكان كلامُه مطابقًا للقُرآن تفصيلًا له وتبيينًا، وعلومه علوم القُرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٦٠١، ٢٥٣٠٢، ٢٥٨١٣)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٤٨١١): «صحيح».

(٢) (ص ١٩٦).

وندب إليه القُرآن، وإعراضُه وتركُه لما منعَ منه القُرآن، ورغبتُه فيما رغَّب فيه، وزهدُه فيما زهَّد فيه، وكراهتُه لما كرهه، ومحبَّتُه لما أحبَّه، وسعيُه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته؛ فترجمت أمُّ المؤمنين لكمال معرفتِها بالقرآن وبالرَّسول وحُسن تعبيرها عن هذا كلِّه بقولها: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ».

وهو زادُ المؤمنين، وروحُ قلوبِهم وغَناءُ نفوسِهم؛ بل إنَّ حياةَ الإنسان الحقيقيَّة لا تكونُ إلَّا بالقُرآن الكريم، ولهـٰذا سمَّاه الله عَزَّوَجَلَّ روحًا في غيرِ ما آيةٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ]، وقال في بدء سورة النَّحل أو سورة النِّعم ـ كما يسمِّيها بذلكَ أهلُ العِلم ـ؛ لكثرة ما عدَّد اللهُ فيها من نِعَمه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ

عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ] فسمَّى ربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ وحْيَه الحكيم، وذِكرَهُ العظيم القرآن الكريم: ﴿رُوحًا﴾؛ لأنَّ حياةَ القُلوب الحقيقيَّةَ إنَّما تكونُ بهـٰذا القُرآن؛ وسمَّى سبحانه وتعالى المَلَك الَّذي ينزلُ بالوحي وهو جبريل عليه السلام «روحًا»، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣)﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القَدْرِ: ٥] أي جبريل، فسمَّاه روحًا؛ لأنَّه نَزل بالقُرآن الَّذي به حياةُ القُلوب، فيجبُ على كلِّ واحدٍ منَّا أن يعلَمَ أنَّ حياتَه الحقيقيَّةَ في هـٰذه الدُّنيا وفي الآخرةِ بحَسْب حظِّه ونَصيبِه من هـٰذا الكتابِ المبارَكِ علمًا وعملًا وتطبيقًا.

ولهـٰذا يقولُ الله ـ جلَّ وعلا ـ في سُورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (١٦) ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا

لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾ [سُورَةُ الحَدِيدِ].

أي كما أنَّ الأرضَ الميتةَ تحيى بالماء، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)﴾ [سُورَةُ الحَجِّ]، فكذلكَ القُلوب لا يمكنُ أن تحيى، وأن تذوقَ طَعم الحياةِ، وأن تتلذَّذ بسعادة الدُّنيا والآخرة إلَّا بهٰذا القُرآن، وبدون القُرآن والعَمل به يعيشُ الإنسانُ في هٰذه الحياة عيشَةً بهيميَّةً لا عيشَةً حقيقيَّةً، ولهٰذا يقولُ الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [سُورَةُ طه]، ونَفْيُ الضَّلال فيه إثباتُ الهداية، ونَفْيُ الشَّقاء فيه إثباتُ السَّعادة؛ فمَن أراد لنَفسِه هدايةً وسعادةً فعليه بالقُرآن، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢)﴾ [سُورَةُ طه] أي: إنَّما أنزلناه عليكَ لتَسعَدَ، وقد قيل في بعض كُتُب التَّفسير(١)

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٢).

أنَّه لمَّا أنزَلَ الله القُرآنَ على رسولِه، قام به هُو وأصحابُه، فقالَ المشركون من قُريش: ما أُنزلَ هذا القُرآن على مُحمَّد إلَّا ليشْقَى! فأنزلَ الله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾، أي: إنَّما أنزلنَاه عليكَ لتَسعد، فالسَّعادة الحقيقيَّة، وهَناءة العَيش، وذَوق طعم الإيمان وحلاوة الدِّين إنَّما تكونُ بالقُرآن الكريم كتابِ ربِّنا ﷻ.

وهٰـذا جاء في القُرآن آياتٌ عديدةٌ فيها أمَر اللهُ ﷻ عبادَه بتدبُّر هٰـذا القُرآن حتَّى يذُوقوا حلاوتَه؛ لأنَّه لا يذوقُ حلاوةَ القُرآن ولا ينتفَع به إلَّا من تدبَّر آياتِه، وعَقِل مضامينَه، وفَهم معانيَه، ولهٰـذا يقولُ شَيخُ المفسِّرين الإمام الطَّبري: «إنِّي أعجَبُ ممَّن قَرأ القُرآنَ ولم يعلَمْ تأويلَه كيفَ يلتذُّ بقراءتِه؟!»⁽¹⁾.

---

(١) حكاه عنه ياقوت الحموي في ترجمته له في «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٥٣).

وهـٰذا جاء في القُرآن آياتٌ كثيرةٌ فيها الأمر بتدبُّر القُرآن الكريم، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ (٢٩) ﴾ [سُورَةُ صٓ]، وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ سببَ ضَلال مَن ضلَّ وهَلاكِ مَن هَلك وضَياعِ مَن ضاع؛ البُعد عن القُرآن وعن تدبُّره، وبيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هَؤلاء وأمثالَهم لو تدبَّروا القُرآن لوَجَدوا فيه شِفاءَ الصُّدور وصَلاحَ القُلوب وسَعادةَ الدُّنيا والآخرة، قال اللهُ تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، أي لو أنَّهم تدبَّروا

القَول وعقَلُوا معناه، وفَهِمُوا دلالاتِه لَمَا حصَل لهم هـٰذا النُّكوص على الأعقابِ، ولَمَا حصَل لهم هـٰذا الضَّلال والضَّياع والفساد!! وهـٰذا يدلُّنا دلالةً بيِّنةً على أنَّ ضَياع الإنسانِ وفسادَه وانحرافَه وزيغَه بحَسْب بُعدِه عن هـٰذا الكتاب العَظيم وهذا النُّور المبين الَّذي فيه سعادتُه في دُنياه وأُخراه.

وقد سمَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ الكريم في مواضِع عديدَةٍ «ذِكرًا»، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]، وقال: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [سُورَةُ صٓ]؛ لأنَّ القُرآنَ فيه ذِكرُ خَبر مَن قَبلَنا، ونَبأ ما بعدَنا؛ فيه ذِكر أسماءِ ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأوصافِه، فيه ذِكر الجنَّة والنَّار، فيه ذِكر الأحكام والأوامِر والنَّواهي، فيه ذِكر القُلوب، فيه ذِكر ما فيه فَلاحُ العَبد وصلاحُه في دُنياه وأُخراه.

وإذا كانَ سمَّاه ربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ في مَواضع عديدةٍ

(ذِكرًا) فمَعنى ذلكَ أنَّ مَن ابتَعد عن القُرآن الكَريم كانَ من الغافلين! ولا يكونُ العَبد بعيدًا عن الغَفلة سالمًا منها إلَّا إذا كان له حظٌّ ونصيبٌ من هـٰذا الكتاب المبارك الَّذي فيه حياة القُلوب، وذِكر العالمين وفلاحُهم وسعادتُهم في الدُّنيا والآخرة.

وقد وصفَ الله عَزَّوَجَلَّ هـٰذا القُرآن بأنَّه لو أنزَلَه الله على جبل لتَصَدَّع، قال الله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]، فالجبلُ الأصمُّ الصَّلب لو أُنزِل عليه هـٰذا القُرآن لتصدَّع مِن خشيةِ الله، وكثيرٌ من القُلوب تَرِدُ عليها زَوَاجر القُرآن، وقَوَارع القُرآن، ومواعِظُ القُرآن فلا يتحرَّك فيها ساكنٌ، بل تبقَى على قسوتِها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخبر عنها فاطرُها وباريها أنَّه لو أَنْزَلَ عليها كلامَه لخشعت ولتصدَّعت من خشية الله، فيا

عجبًا! مِن مضغَة لحمٍ أقسى مِن هذه الجبال تسمع آياتِ الله تُتلَى عليها ويُذكَرُ الرَّبُّ ـ تبارك وتعالى ـ فلا تلينُ ولا تخشعُ ولا تنيب، فليس بمُسْتَنْكَر على الله عَزَّوَجَلَّ ولا يخالف حِكمَتَه أن يخلق لها نارًا تذيبها؛ إذ لم تلن بكلامِه وذكره وزواجِره ومواعظِه، فمَن لم يلن لله في هذه الدَّار قلبُه ولم ينب إليه ولم يُذِبْه بحُبِّه والبكاء من خشيتِه فليتَمَتَّع قليلًا؛ فإنَّ أمامَه المُلينُ الأعظم وسَيُردُّ إلى عالم الغَيب والشَّهادة فيَرى ويعلم»(١).

فذِكر القُلوب ويقَظَة النُّفوس وصلاحها إنَّما يكونُ بارتباطها بهٰذا القُرآن، فإذا كانَ القُرآنُ ربيعًا للقَلب حَيِيَ معه العَبد حياةً جميلةً هنيئةً سعيدةً، وقَد جاء في الدُّعاء المأثُور عن نبيِّنا ﷺ في طَرد الهمِّ والغَمِّ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ به فِي عِلْمِ**

---

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٢٢١).

الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»(١).

تأمَّل أخي! ـ وفَّقك الله ـ هـٰذه المعاني الَّتي هي ثمارُ القُرآن وآثارُه، قال: «**أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي**»، لمَّا ذَكَر القَلبَ قال: «**رَبيعَ قَلْبِي**»، ولمَّا ذَكَر الصَّدر قال: «**نُورَ صَدْرِي**»؛ لأنَّ الصَّدر محيطٌ بالقَلب، فإذَا أضَاء الصَّدرُ انعَكَس ضياؤُه على كلِّ ما في داخلِه، ولمَّا ذكر القلبَ ذَكَر الرَّبيع؛ لأنَّ القلبَ هُو مَنبَعُ الفَضائل حين يوفَّقُ للصَّلاح والزَّكاء، «**أَلاَ وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**» متَّفقٌ عليه(٢)، وهـٰذا فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ القلبَ عندما يصلُحُ بالقُرآن يكون ربيعًا، والرَّبيع يُثمِرُ أطايبَ

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بَشير رضي الله عنه.

الثَّمَر وأجمَلَ الزُّهور وأحسنَ الوُرُود وأعبق الرَّوائح.

وفي قوله: «**وجِلَاءَ حُزْنِي**» فائدةٌ عظيمةٌ من فَوائد القُرآن أنَّ جِلاء ما يكونُ في القَلب من أحزانٍ وآلامٍ وهمومٍ وغمومٍ، إنَّما يكونُ بهـٰذا الكتاب العظيم الَّذي هُو في الحقيقة كتاب السَّعادة، ولا يمكنُ أن تسْعَد بالقُرآن بمجرَّد وضعِه مزخرفًا في رفٍّ في البيتِ أو في موضعٍ جميلٍ، ولا يمكنُ أن يذوقَها بمجرَّد هذِّ قِراءته دونَ تدبُّرٍ ولا تعقُّل ولا تفهُّم، ولا عملٍ بهـٰذا الكتاب؛ بل سعادةُ القُرآن وحلاوتُه وهناءةُ العيش المحصَّلة بالقُرآن الكَريم لا تكونُ إلَّا بتدبُّره وتعقُّل معانيه، والعَمل بما فيه.

ولهـٰذا قال غيرُ واحدٍ من أهل العِلم في معنَى قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١]، أنَّ حقَّ التِّلاوة لا يتمُّ إلَّا بثلاثة أمور:

الأمر الأوَّل: قراءة القُرآن وحُسن تَرتيله وحفظُ ما تيسَّر منه.

الأمر الثَّاني: التَّدبُّر وفهم الخطاب، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ويكون همُّه وهو يتلو القُرآن ليسَ متى يختِم السُّورة، أو متى ينتهي من التِّلاوة؛ وإنَّما يكون همُّه وهو يتلو القُرآن متى أعقِلُ عن الله الخطابَ؟ متى أفهَمُ كلامَ الله؟ متى يتأثَّر قلبي بالقُرآن؟ متى أعمَلُ بالقُرآن؟ متى أكونُ من الصَّادقين الموصوفينَ بذلك في القُرآن؟ متى أكون منَ التَّوَّابين، منَ المنيبين، من الذَّاكرين، من المصلِّين، من القانتين، من المتصدِّقين... إلى آخِره، متى أكون كذلك؟

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تدبَّر كلامَه عرف الربَّ عَزَّ وَجَلَّ، وعرف عظيمَ سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرضِ عبادته، فألزم

نفسَه الواجبَ، فحذِرَ ممَّا حذَّرَه مولاه الكريم، فرَغِبَ فيما رَغَّبه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاءً فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأَنِسَ ممَّا يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التِّلاوة للسُّورة إذا افتتحها متَّى أَتَّعظ بما أتلو، ولم يكن مرادُه متى أختم السُّورةَ، وإنَّما مرادُه متى أعقل عن الله الخطاب، متى أزدجر، متى أعتبر؛ لأنَّ تلاوةَ القرآن عبادةٌ، لا تكون بغفلة، والله المُوفِّق لذلك»⁽¹⁾.

فيقرأ وهو يجاهدُ نفسَه على تحقيق ذلك، ولهـٰذا قال ابنُ القيِّم ﵀ في بعض كتبه: «فقِراءةُ آيةٍ بتفكُّر وتفَهُّم خيرٌ من قِرَاءَة ختمَة بِغَيْر تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفَعُ للقَلب وأدعَى إلى حُصُول الإيمانِ وذَوْقِ حلاوةِ القُرْآن»⁽²⁾، آيةٌ

---

(1) «أخلاق حملة القرآن» للآجري (ص١٠).

(2) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٨٧).

واحدةٌ تقرؤها وتتدبَّرها وتُداوي بها نفسَك وتتأمَّلُ في معانيها خيرٌ وأنفع من هذٍّ سريع.

ولهـٰذا كان بعضُ السَّلف يقومُ اللَّيل بآيةٍ واحدة، ونبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قام ليلةً بآيةٍ واحدةٍ، وهي قولُه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ][1]؛ وجاء في «الصَّحيح» عن أبي سَعيد الخُدري رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»[2].

فعندما تتدبَّر وتتأمَّل ولو آيةً واحدةً تعيشُ معها ليلةً تُداوي بها نفسَك، وتعالجُ بها مرضَ قلبِك، وتقوِّي بها

---

[1] (١) أخرجه أحمد (٢١٣٨٨)، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٢٠٥).

[2] (٢) رواه البخاري (٦٦٤٣).

إيمانَك، وتقوِّي بها توكُّلَك، وتقوِّي بها صدقَك مع الله، وصِلَتَك بالله ـ تبارك وتعالى ـ خيرٌ لكَ من أنْ تُمضي التِّلاوةَ هذًّا بدون عَقْل ولا فَهمٍ.

والأمر الثَّالث: العَمل بالقُرآن الكريم

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُنزل القُرآن ليُعمَلَ به، فاتَّخذوا تلاوتَه عمَلًا»(١)، فالَّذي أُنزل لأجلِه القُرآن أن نعمَل به، وأن نكونَ مِن أهل القُرآن، ولا يمكنُ أن يكونَ العبدُ مِن أهل القُرآن بمجرَّد حفظِ حروفِه أو تلاوةِ آياتِه وسورِه فقَط، بل لابدَّ من الفَهم للمعاني، ولابدَّ من العَمل بهـٰذا الكتاب العَظيم، وقد تحدَّث الإمامُ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض قُرَّاء زمانِه، وهو مِن كبار عُلماء التَّابعين القَرن الَّذي يلي قَرن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «إنَّ أحدَهم ليقول:

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص ١٤٨) لابن قتيبة، «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٨٧).

لقد قرأتُ القرآنَ كلَّه فما أسقطتُّ منه حرفًا» مقصوده أنَّه أتقنَ حفظَه وجوَّد تلاوتَه وحقَّق مخارجَه قال: «وقَد ـ والله ـ أسقطَه كلَّه، ما يُرى له القُرآن في خُلُق ولا عَمَلٍ حتَّى إنَّ أحدَهُم ليقول: إنِّي لأقرأُ السُّورة في نَفَس! والله ما هؤلاء بالقرَّاء ولا العُلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، متى كانت القرَّاءُ مثل هذا؟! لا كثَّر اللهُ في النَّاس مثلَ هؤلاءِ»(١).

ليسَت تلاوةُ القُرآن مجرَّدَ قراءةٍ أو حفظٍ لحروفِه، بل لابدَّ من التَّدبُّر، ولابدَّ ـ أيضًا ـ من العَمل، والعَملُ بالقُرآن يسمَّى تلاوةً، إذا صلَّيتَ فصلاتك تلاوةٌ للقُرآن، وإذا صُمتَ فصيامك تلاوةٌ للقُرآن، وهكذا سائر العبادات فعلها يعدُّ تلاوةً للقرآن، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [سُورَةُ الشَّمۡسِ] أي تَبِعَها، فالاتِّباع مِن معاني التِّلاوة، والقُرآن إنَّما أُنزل لأجل ذلكَ أي ليعمَلَ به العبدُ.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (٧٩٣).

فأنتَ تقرأُ القُرآن، وتمُرُّ بك أوامر، ونواهٍ، وزواجر، وقوارع، ومواعظ، وتذكيرات، وبصائر؛ فما حظُّك منها؟ وما نصيبُك؟

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعِها سمعَكَ؛ فإنَّه إمَّا خيرٌ يَأْمُرُ به، أو شرٌّ يَنهَى عنه»(١).

أمَّا إذا كنتَ لا ترعِيها سمعَك وتمُرُّ وكأنَّ الأمر لا يعنيك، وكأنَّ الخطابَ لغيرك؛ فمتَى تستفيدُ منَ القرآن؟ ومتى يكونُ للقُرآن أثر عليك؟

ولهٰذا يحتاج في هٰـذا المقام منَ العَبد أن يجاهد نفسَه على تحقيق هٰذه المعاني الثَّلاثة لتلاوة القُرآن الكَريم؛ بحُسن القِراءة والحفظِ والتِّلاوة، وبحُسن التَّأَمُّل والتَّدبُّر والفَهم لمعانيه، وبالعَمل به.

---

(١) رواه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٦).

وقد يسَّر الله هذه الأمور الثلاثة للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [سُورَةُ القَمَرِ] قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يسَّره للذكر، ويسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال»⁽¹⁾.

ثمَّ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وصفَ هـٰذا القُرآن بأنَّه شفاءٌ لما في الصُّدور: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يُونُسَ: ٥٧].

يقول قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ القُرآنَ يدلُّكم على دائِكم ودوائِكم، أمَّا داؤُكم فذنُوبكم، وأمَّا دوَاؤُكم فالاستِغفار»⁽²⁾.

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٤٥)، والأصبهاني في «التَّرغيب والتَّرهب» (٢٢١).

والأمراضُ الَّتي تصيبُ القلبَ كثيرةٌ، لكنَّها ترجعُ إلى نوعين: أمراض الشَّهوات، وأمراض الشُّبهات، والدَّواء النَّاجع والبَلسَم الشَّافي للمَرضَيْن القُرآن الكريم.

فالقُرآن فيه مداواةٌ للقُلوب وشفاءٌ لما في الصُّدور؛ ولكن متَى يحصلُ الاستشفاءُ والتَّداوي به؟ وكيف يُستَشفى من هـٰذه الأمراض بكتابِ الله ﷻ؟

وهل يمكنُ أن يتحقَّق للقلبِ شفاءٌ بالقُرآن! وواقع المرء مع القُرآن أنَّه لا يُجاوز تَراقيه، يتحرَّك به لسانُه فقط أمَّا قلبُه فمحرومٌ منه؟ هيهات؛ بل لابدَّ أن يصلَ القُرآن إلى القَلبِ، لابدَّ أن يتحرَّك القلبُ بآياتِ القُرآن ومعانيه، وبدلالاتِ القُرآن ومضامينه، وبمواعظ القُرآن وتذكيراته، لابدَّ أن يتحرَّك القلبُ بذلك حتَّى تتحرَّك فيه الحياة، وحتَّى تزولَ عنه الأمراض، وتذهبَ عنه الأسقَام؛ فإنَّ الآيةَ إن وقعَت في القلب موقعًا عظيمًا عملَت فيه

عملًا عجيبًا، روى البخاري عن جُبَير بن مطعم ﷺ قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقرأُ في المغربِ بالطُّورِ، فلمَّا بلغ هذه الآيةَ ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ۝٣٧﴾ [سُورَةُ الطُّورِ] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ».

وعليه أن يتداوى منه بحسب مرضِه؛ فلو كانَ في الإنسان ـ مثلًا ـ مخاوفُ وأوهامٌ، ويقول: أنا في اللَّيل أفزَع، أو أنا أخافُ مِن كذا، يداويَ نفسَه بقَول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ] يكرِّر الآيةَ حتَّى يمتَلئ قلبُه خوفًا منَ الله وتذهبَ عن قلبِه المخاوف الَّتي يُلقيها ويزرَعُها الشَّيطان في قلبه.

وإذَا وجد مِن نفسِه ضَعفًا في التَّوكُّل على الله، يردِّد قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطَّلَاقِ: ٣]،

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [سُورَةُ المَائـِدَةِ].

وإذا كانَ مُبتَلًى بالنَّظر إلى النِّساء، وتتحرَّك فيه أمورٌ وهو في صراعٍ مع نفسِه في الخَلاص منها، يداوي نفسَه بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [سُورَةُ النُّورِ] يكرِّرها ويتأمَّل فيها، ويحاولُ أن تصلَ إلى قلبه.

وإذا كانَ عنده عقوقٌ لوالدَيْه وتقصيرٌ في حقِّهما يقرأ متدبِّرًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ].

وإذَا وجد في نفسِه ضعفًا في إيمانه يردِّد آياتٍ يداوي بها نفسَه، ويحاولُ أن تصلَ هـٰذه الآياتُ إلى قلبه وأن تتمكَّن فيه، فالآية إذا وصَلت القلبَ حصل الشِّفاءُ، وتحقَّق الثَّوابُ

بإذن الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ فالمشاكل كلُّها سببها عدم وصولِ القُرآن إلى القَلب، أمَّا إن دخلت الآيةُ القلبَ زال المرضُ أيًّا كان؛ فأحيانًا يكونُ مرضُه الكُفر بالله ﷻ فيتحوَّل إلى إسلام، وأحيانًا يكونُ مرضُه النِّفاق فيتحوَّل إلى الإيمان، وأحيانًا يكونُ مرضُه الفِسق والفُجور والمعاصي والآثام فيتحوَّل إلى استقامةٍ وهدايةٍ وصلاح وعبادةٍ لله ـ تبارك وتعالى ـ.

خَلْقٌ كثيرٌ لا يُحصيهم إلَّا ربُّ العالمين ﷻ زالت أمراضُهم وشُفِيَتْ أسقامُهم بسماعه والاستشفاء به؛ والقصص في هـٰذا كثيرةٌ جدًّا؛ وكثيرٌ منَ النَّاس يتحدَّث أنَّ هدايتَه بسبب آيةٍ واحدةٍ سمعَها وأخذَ يردِّدها ويُجيلُها في نفسِه وتتكرَّر في قلبِه، حتَّى جعلَ الله ﷻ فيها هدايتَه وصلاحَه.

فالفُضيل بن عياض من أئمَّة التَّابعين أمضى شطرًا من حياتِه ـ قبل توبته ـ يقطع الطَّريق على النَّاس، تهابُه القافلة بكاملِها إلى أن بلغَ الأربعين، ذُكر في ترجمته في «سير أعلام

النُّبلاء»(١) أنَّ سببَ توبتِه أنَّه عشقَ جاريةً، فبينَما هو يرتقي الجدرانَ إليها إذ سَمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فلمَّا سمعَها قال: بلى يا ربِّ! قَد آنَ، فرجع، فآواه اللَّيْلُ إلى خربةٍ فإذا بها سابلةٌ، فقال بعضُهم: نَرحل، وقال بعضُهم: حتَّى نُصبِحَ؛ فإنَّ فُضيلًا على الطَّريق يقطَعُ علينا.

قال: ففكَّرتُ، وقلتُ: أنا أسعَى باللَّيل في المعاصي، وقَومٌ منَ المسلمين هاهنا يخافُوني، وما أرى اللهَ ساقَني إليهم إلَّا لأرتَدع، اللَّهمَّ إنِّي قَد تبتُ إليكَ وجعلتُ توبتي مجاورةَ البيت الحرام.

وذهبَ إلى مكَّة، وبقيَ فيها عابدًا إلى أن توفَّاه الله ﷻ، وفي مكَّةَ يأتي العُلماء والمحدِّثون ويَتلَقَّى عنهم العلمَ ويأخُذَ

---

(١) (٨/ ٤٢٣).

عنهم الفقهَ ويحفظُ عنهم الأحاديثَ، ولا تفتَح الآنَ كتابًا من كُتب التَّفسير أو كتابًا من كُتب الفِقه أو الحديث أو غيرها إلَّا وتجد النُّقولَ العظيمةَ عن هـٰذا الإمام، آيةٌ واحدةٌ غيَّرت حياتَه وحوَّلت مَسَاره مِن مجرمٍ كبيرٍ إلى عابدٍ منَ العُبَّاد وصالح من الصَّالحين بل إمام من الأئمَّة.

ولهـٰذا ينبغي على الإنسانِ أن يتفكَّر في أمراضِه وفي أسقامِه وفي مشاكِلِه، ويبدأ يداوي نفسَه بالقُرآن، إذا كان متهاوناً في الصَّلاة مقصِّرًا يقرأُ آياتٍ تذكِّرُه بمكانةِ الصَّلاة ومنزلتِها يردِّدُها ويسألُ ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعلَه من أهلِها، وبهٰذه الطَّريقة يحيى قلبُه ـ بإذن الله تعالى ـ.

وينبغي له قبل أن يقرأ القرآن أن يتعلَّم كيفيَّة الاستفادة منه حتَّى يتمَّ له الانتفاعُ به، وقد ذكر ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا قاعدةً جليلةَ القدر عظيمةَ النَّفع فقال: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند

تلاوته وسماعه وأَلْقِ سمعَك واحضر حضور من يخاطبه به مَنْ تكلَّمَ به سبحانه منه إليه»(١).

فهٰذه طريقةٌ نافعةٌ، وعظيمةٌ جدًّا للانتفاع بالقُرآن والاستشفاء به، لا أن يقرأ الآياتِ ويمضي وكأنَّ الأمرَ لا يَعنِيه، بل عليه أن يقفَ، ويتأمَّل ويتدبَّر، ويستَعين بكُتُب التَّفسير، وكلام أهل العِلم، وإذا وصَلتَ الآيةُ للقَلب وتمكَّنَت من القَلب حصَلَ الشِّفاء بإذنِ الله ـ تبارك وتعالى ـ، وهٰذا معنَى قولِ الله ﷻ: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، أمَّا مجرَّد التِّلاوة والهَذِّ وعَدم التَّدبُّر وعدم التَّعقُّل لكلام الله ﷻ ولمعَاني القُرآن الكَريم، فهٰذا لا يتحقَّق به الفائدةُ المرجوَّة والثَّمرةُ المطلوبَة الَّتي ينبغي أن يظفر بها العبدُ مع هٰذا الكتاب العَظيم المبارك كتاب الله ﷻ.

---

(١) «الفوائد» (ص٥)، وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٤٨ ـ ٥١) و(٧/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

وليَحذر مِن أن يكونَ في هذا الباب على النَّقيض كما قال ميمون بن مِهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الرَّجلَ ليُصَلِّي ويلعَنُ نفسَه في قراءته فيقُول: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ وإنَّه لظالم»(١).

هذا وإنَّ الكلام عن القُرآن وفضلِه وثمارِه وآثارِه، والآداب الَّتي ينبغي أن يكونَ عليها العبد المؤمن معه، واسعٌ جدًّا، ولعلَّ في هٰذا القَدر خيرٌ ونفعٌ وفائدةٌ بإذن الله تعالى.

وأسألُ اللهَ الكريم ربَّ العرش العظيم بأسمائه الحُسنى وصفاته العليا، وبأنَّه الله الَّذي لا إلهَ إلَّا هو أن يجعلَ القُرآن الكريم ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وجلاءَ أحزاننا وذهابَ همومنا وغمومنا، وأن يجعلنا مِن أهل القُرآن الَّذين هُم أهل الله وخاصَّتُه، وأن ينفعَنا بالقرآن، وأن يجعلَ القُرآن حجَّةً لنا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٤٨٤).

لا علينا، وأن يوفِّقَنا لتدبُّره على الوجه الَّذي يُرضيه والعَمل به، وأن يجعلنا مِن أهل السَّعادَة والفَوز في الدُّنيا والآخرة، وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعَمَ على عبده ورسولِه نبيِّنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعِين(١).

* * *

---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرة أُلقِيَت في دبي في شهر رمضان المبارك عام (١٤٣٠هـ).